الأركان الأساسية في صيانة المجتمع

قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة/ 30). فالله سبحانه خلق البشر بمرتبة عالية وعزيزة وهي مرتبة الخلافة على هذه الأرض، فلهذا جعل من أهم أركان وقواعد حفظ المجتمع هو حفظ كرامة الإنسان في هذا المجتمع، فهو لم يجز المسّ بها أو النيل منها أو إهدارها تحت أيّ اعتبار. ومن أبرز الموارد التي تحفظ كرامة الإنسان، عدم الافتراء عليه لتشويه صورته وإسقاط موقعه في نفوس الناس. ومع الأسف، بتنا نجد مثل هذا السلوك في واقعنا، من الذين يعمدون إلى تشويه صورة مَن يخالفونهم، أو مَن يرونهم مزاحمين لهم أو منافسين، بأن ينسبوا إليهم أفعالاً لم يفعلوها، أو أقوالاً لم يقولوها، أو يخرجوا كلامهم عن سياقه، أو بتقطيع كلامهم، أو بإظهارهم بمظهر غير لائق، أو بطمس صفات أو أدوار إيجابية قاموا بها. وقد جاء التحذير في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من انتهاج هذا الأسلوب، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْمًا مُبِيناً) (الأحزاب/ 58). وفي الحديث: «إذا اتّهم المؤمن أخاه، إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء». وقد ورد في الحديث: «خمسٌ لا كفّارةَ لهم: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرّم بغير الحقّ، والفرار من الزّحف، والبهتان هو الافتراء. وفي الحديث: «مَن بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلٍّ من نار، حتى يخرج ممّا قاله فيه».

أمّا القاعدة الثانية، فهي أنّ العدالة في هذا المجتمع للجميع، وهي ليست للبعض دون البعض الآخر، فالعدالة في نظر الإسلام لا تتأثّر بعاطفة حبّ أو بُغض أو هوى لاختلاف في مجال معيّن، ولا تخضع لموازين القوى أو موازين المال أو السلطة، فالعدالة هي فوق كلّ اعتبار. هذا ما دعا الله إليه عندما قال: (فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النِّساء/ 135). وعندما قال عزّوجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة/ 8). وقد كانت وصيّة الإمام عليّ (عليه السلام) لولديه الحسن والحسن

(عليهما السلام): «أوصيكما بتقوى الله في الغنى والفقر، وكلمة الحقّ في الرّضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وبالعدل على الصديق والعدوّ».

وقد رأينا كيف أنّ القرآن الكريم يتحيّز لليهودي المظلوم على حساب المسلم الظالم، في الوقت الذي كان هناك أكثر من سبب يدعو ليكون الحُكم لحساب المسلم: السبب الأوّل، هو أنّ اليهودي الذي دافع القرآن الكريم عنه، هو من يهود المدينة المعروفين بعدائهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وللمسلمين، والذين لم يدَعوا فرصةً للتآمر عليهم إلّا وقاموا بها، حتى نزلت فيهم الآية: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (المائدة/ 82). وسبب آخر، هو أنّ مَن نزلت الآية لتدينه هو من الأنصار الذين أووا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصروه، وقدّموا التضحيات من أموالهم وأنفُسهم لحماية الإسلام، وهذا الاتّهام قد يؤدّي إلى ردّ فعل سلبي من قبلهم تجاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، في ظلّ العصبيات العشائرية والقبلية التي كانت لا تزال فاعلة في الواقع الإسلامي المستجدّ، وقد يؤدّي إلى إعادة التوتر بين الأوس والخزرج الذين كان بينهما عداء مُستحكم قبل الإسلام، لكون السارق من الأوس، وصاحب الدرع من الخزرج. وبالتالي، وفق المعيار السياسي، لم يكن ثمة مصلحة لكي تنزل الآيات الكريمات لتبيّن براءة اليهودي وافتراء المسلم، ولكنّ مقياس الإسلام ومعياره، ورسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، إنّما يقوم على أساس الحقّ والعدل.

أمّا القاعدة الثالثة، فتتّصل بتوجيه المجتمع المسلم إلى عدم الدفاع عن أيّ شخص يخون أمانته، فيسرق أو يتّهم بغير حقّ، حتى لو كان من أقرب الناس إليه. ولتبيان أهميّته، كان الخطاب لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً) (النِّساء/ 107). وإلى الذين دفعتهم عاطفتهم للدفاع: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) (النِّساء/ 109).. إنّ الالتزام بمثل هذا السلوك، هو الذي يردع السارقين والفاسدين عن سلوكهم، فهم يرتدعون عندما يقاطعهم المجتمع، ولا يرون أحداً بجانبهم يبرّر لهم أعمالهم وسلوكهم، كما قال الإمام عليّ (عليه السلام) لولديه الحسن والحسين (عليهما السلام): «كونا للمظلوم عوناً وللظالم خصماً».